عمر حميده

مدائن الجرذان

في الشارع العربيّ بيت سيىء السمعه
أطفاله بلهٌ
ونساؤه عهرٌ
ورجاله مرضى وقوّادون . سكرى عبر حانات المدائن ينشدون اللهو والمتعه ..

. . . . . .

ولتلك . كل مدينة الله عنها غاب واسودت كواكبها استحال الساكنون بأرضها نمطا من الجرذان يحتضنون نقمة كل تجربة . ويشهد ما تبقى منهم الحكماء . يعزف والمباضع رقصة الآلام يحكي من مجازر جيله السالف .

لتلك أذوب أحني هامتي

. . . . . .

في الصبح يلقاني أمام المنزل العربيّ طابور من الاطفال يمسح بعضهم نعلي ونعل صديقتي . ما جئت كي أستعرض الطابور . رأسي شامخ قد كنت مزهوا أفكر في عشية عطلة الاسبوع كيف مضت .
ورحت مخططا للفرصة الاخرى ...

. . . . . .

وأشيع ان الشارع العربيّ موبوء تهامس حولي الاطفال . خفت فأزمة الدولار تملأ حيزا بالصفحة الاولى وتجذب أعين القراء نحو جريدتي ...
ومسائل الطاقه
باتت تؤرقني ...
وتهامس الاطفال شدوا ربطتي . أحنيت رأسي الصقوا الاصباغ في وجهي استحال حظيرة ومبازلا ...
وضحكت يوما كاملا ...

. . . . . .

اصحو على صخب
يتشاجر الجيران يبصق بعضهم في وجه بعض
يتقيأ الثملون في العتبات والمصعد
وتصطفق النوافذ تكسر الابواب والبللور
تبقى حجرة الكهنوت صامتة
لا شيء يحدث عندها ...
تتشقق الجدران ينطلق الضجيج يدق مطرقة على سندان ...
الموت سيد هذه الفرفه
والبيت يدعى سيء السمعه ...

عمر حميده

الذي حققته هذه التركة العربية أضحى جزءا من الانجاز العام ، خاصة ان تراثنا ازدهر عبر تفاعله الحي بالتراث الانساني ، شأن كل تراث حقيقي ، ومن ثم فان الكثير من ابداعات التراث يندرج في البعد التاريخي او تاريخية الفكر ، وعلى هذا فهو ساكن ، على نحو ما، لحاضرنا ، لان المفهوم الماركسي عن الانقطاع غير المنقطع يتبدى بشكل جلي في موضوع التراث .

هناك نقطة ثانية تستوقفنا في دراسة سعد زغلول عبد الحميد ، ونراها وثيقة الصلة ونابعة من رأيه السابق حول فحوى العودة الى التراث ، وهي الموقف من الحضارة الغربية . يذهب الباحث ان هذه الحضارة الغربية تجتاحنا ببريقها فنضيع في غمرة الانبهار ، وهي « تكاد تأخذ بخناق حضارات الشعوب العريقة ـ ومنها شعبنا العربي ـ وكأنه لا فكاك من قبضتها ، بعد ان اصطنعت ذلك الكائن العجيب الذي يعرف « بالتكنولوجيا » ، وكأنه مارد جبار أطلقه اصحابه على من سواهم ممن تخلفوا عند بوابات العصور الوسطى ، او الذين ما زالوا يطرقون أبواب العصور الحديثة بشيء من التردد والريبة ... » . ان الاستاذ سعد زغلول يتحدث عن الحضارة الغربية والتكنولوجيا التي أفرزتها وكان الامر يتصل بالاجواء السحرية لحكايات ألف ليلة وليلة ، وعوضا عن التناول الموضوعي لاثر ثقافة الغرب في محيطنا ، مهما كان شان هذا الاثر وفحواه ومرماه وفاعليته ، يعمد الباحث الى تغطية الموضوع بغطاء لفظي من البريق والانبهار والاختناق ! ان الفكر العربي الحديث تشكلت تياراته النافذة ، المتغلغلة ، تحت ضغط الحضارة الغربية سلبا وايجابا . ان مولد البورجوازية العربية الصاعدة من جهة ، وتسارع سير العالم نحو نمط متقارب في المعيشة من جهة أخرى ، قد أديا الى نمو الافكار الغربية وشيوعها نظريا وتطبيقيا في أجزاء واسعة من الوطن العربي ، مهما كان أسلوب هذا الشيوع وذاك النمو صالحا أو ملتويا ، مفيدا او مشوها . ثم ان الافكار الاشتراكية على انواعها أول ما تسربت الينا من الغرب الاستعماري نفسه ، لان الفكر الغربي يتعين علينا النظر اليه عبر صراعاته وتفاعلاته ، فنضالنا السياسي ينبغي أن لا يحجب عنا الزوايا المشعة من هذا الفكر الذي يعبر عن مرحلة متقدمة قطعتها البشرية . لقد بدت المفارقة عندما وقع التناقض بين الافكار الليبرالية الغربية المطبقة في منبتها ، بشكل اشكالي ونسبي ومتفاوت واحيانا اضطراري ، وبين الهجمة الكولونيالية على بلدان العالم الثالث التي أملتها ظروف التطور الموضوعي للرأسمالية الغربية ، وكان ان اصطحب المستعمرون معهم زادا من التضليل الايديولوجي ينفي نفسه بنفسه ، فكيف ينادي المستعمر بالحرية ، في مفهومها البورجوازي ، وهو يخنقها جهارا ، وكيف يعلن شعارات العدالة والدستور والديمقراطية وهو يسترقها بلا حياء ؟! ورغم ذلك كله كان لا بد لعملية التواصل والتفاعل والتجاذب أن تتم ، حتى في بعض الاوساط ذات الافكار السلفية الاصلاحية ، لان الفكر يأخذ مجراه بشكل متشابك ، وهو ايضا تعبير عن مصالح طبقية ، في أبرز وجوهه ، لهذا استمر نفوذ الغرب الثقافي لاستمرار صعود البورجوازية العربية وامتدادها ، لكن الفكر يأخذ مجراه كذلك بشكل نقدي ، لذا حدث التصادم الفكري ، الى جانب الصراع السياسي وبسببه ودعما له ، بين المثقفين العرب الطليعيين والحضارة الغربية ، لان الترسانة الفكرية لهذه الحضارة جاءتنا بافكار معدة ، وبدل ان يصار الى اكتشافها عبر الواقع وخصوصيته ، تمّ الصاقها على نحو كيفي فوق جدار الواقع الخارجي . ان موضوع الفكر العربي والحضارة الغربية شيق وخطير ، ويحتاج بالتأكيد الى معالجة مسهبة ، متانية ، ونقدية، لكن موقف سعد زغلول عبد الحميد من الموضوع متخلف جدا ، لانه ينبيء عن سلفية تجاوزها الزمن وعن لفظية مزمنة يعاني منها فكرنا الاجتماعي والادبي في الكثير من نتاجه . ان السيوف المرصعة تبدو جميلة ، غير ان معترك الفكر يبحث عن شفراتها القاطعة لا عن مقابضها المزخرفة .

بيروت — **أحمد سهيل علبي**